

تفسير ابن كثير

قال عبد الرزاق : عن سفيان الثوري عن الأعمش و منصور عن أبي الصحن عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى : { واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها } الراية قال : هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلעם بن باعوراء وكذا روأه شعبة وغير واحد عن منصور به وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن ابن عباس : هو صيفي بن الراهب قال قتادة وقال كعب : كان رجلاً من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الأكبر وكان مقيناً ببيت المقدس مع الجبارين وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنه : هو رجل من أهل اليمن يقال له بلעם آتاه الله آياته فتركها وقال مالك بن دينار : كان من علماء بنى إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائيد بعثه النبي عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى الله فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام وقال سفيان بن عيينة عن حصين عن عمران بن الحارث عن ابن عباس : هو بلעם بن باعوراء وكذا قال مجاهد وعكرمة وقال ابن جرير : حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا إسرائيل عن مغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال : هو بلعام وقال ثقيف : هو أمية بن أبي الصلت وقال شعبة عن يعلى بن عطاء عن نافع بن عاصم عن عبد الله بن عمرو في قوله { واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا } الراية قال : هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت وقد روى من غير وجه عنه وهو صحيح إليه وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ولكنه لم ينتفع بعلمه فإنه أدرك زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته وظهرت لكل من له بصيرة ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه وصار إلى موالة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة قبحه الله وقد جاء في بعض الأحاديث أنه من آمن لسانه ولم يؤمن قلبه فإن له أشعاراً ربانية وحكماء وفصاحة ولكن لم يشرح الله صدره للإسلام وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو حاتم حدثنا ابن أبي نمر حدثنا سفيان عن أبي سعيد الأعور عن عكرمة عن ابن عباس في قوله { واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها } قال هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيهن وكانت له امرأة له منها ولد فقالت أجعل لي منها واحدة قال فلك واحدة مما الذي تريدين ؟ قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بنى إسرائيل فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بنى إسرائيل فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئاً آخر فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيينا الناس بها فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فعادت كما كانت وذهبت دعوات الثلاث وتسمى البسوس غريب وأما

المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدين في زمان بنى إسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعام وكان يعلم اسم الله الأكابر وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف : كان مجاب الدعوة ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه وأغرب بل أبعد بل أخطأ من قال : كان قد أوتى النبوة فانسلخ منها حكاه ابن جرير عن بعضهم ولا يصح وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه أتاه - يعني بل عام - أتاه بنو عمه وقومه فقالوا : إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه قال : إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه فذلك قوله تعالى : { فانسلخ منها فأتبعه الشيطان } الآية وقال السدي : لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله { فإنها محرمة عليهم أربعين سنة } بعث يوشع بن نون نبياً دعا بنى إسرائيل فأخبرهم أنهنبي وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين فبايعوه وصدقوه وانطلق رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعام فكان عالماً يعلم الاسم الأعظم المكتوم فكفر - لعنه الله - وأتى الجبارين وقال لهم : لا ترهبوا بنى إسرائيل فإني إذا خرجمت تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون وكان عندهم فيما شاء من الدنيا غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء لعظمهن فكان ينكح أتانا له وهو الذي قال الله تعالى : { فانسلخ منها } قوله تعالى : { فأتبعه الشيطان } أي استحوذ عليه وعلى أمره فهما أمره امتنع وأطاعه ولهذا قال : { فكان من الغاوين } أي من الهالكين الحائرين البائرين وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حيث قال حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا محمد بن بكر عن الصلت بن بهرام حدثنا الحسن حدثنا جندب البجلي في هذا المسجد أن حذيفة يعني ابن اليمان روى حدثه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رأيته بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام اعتبراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك] قال قلت يا النبي الله أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي ؟ قال [بل الرامي] إسناد جيد والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين ولم يرم بشيء سوى الإرجاء وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويعيني بن معين وغيرهما .

وقوله تعالى : { ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه } يقول تعالى : { ولو شئنا لرفعناه بها } أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا باليات التي آتيناه إياها { ولكنه أخلد إلى الأرض } أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها وأقبل على لذاتها ونعمتها وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهاي وقال أبو الراھویه في قوله تعالى : { ولكنه أخلد إلى الأرض } قال : تراءى له الشيطان على علوة من قنطرة

بانياس فسجدت الحمارة ۚ وسجد بلعام للشيطان وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير وغير واحد وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير ۷ : وكان من قصة هذا الرجل ما حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر عن أبيه أنه سئل عن هذه الآية { واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا } فحدث عن سيار أنه كان رجلاً يقال له بلعام وكان مجاب الدعوة قال : وإن موسى أقبل فيبني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام أو قال : الشام قال : فرعون الناس منه رباعاً شديداً فأتوا بلعام فقالوا : ادع ۖ على هذا الرجل وجيشه قال حتى أؤامر ربى أو حتى أؤامر قال فأمر في الدعاء عليهم فقيل له لا تدع عليهم فإنهم عبادي وفيهم نبيهم قال : فقال لقومه إني قد آمرت ربى في الدعاء عليهم وإنني قد نهيت فأهدوا له هدية فقبلها ثم راجعوه فقالوا : ادع عليهم فقال : حتى أمؤامر ربى فأمر فلم يأمره بشيء فقال : قد وامررت فلم يأمرني بشيء فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى قال : فأخذ يدعو عليهم فإذا دعا عليهم جرى على لسانه الدعاء على قومه وإذا أراد أن يدعو أن يفتح لقومه دعا أن يفتح لموسى وجيشه أو نحوه من ذلك إن شاء ۖ قال : فقالوا ما نراك تدعوا إلا علينا قال : ما يجري على لسانك إلا هكذا ولو دعوت عليه أيضاً ما استجيب لك ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم إن ۖ يبغض الزنا وإنهم إن وقعوا في الزنا هلكوا ورجوت أن يهلكهم ۖ فأخرجوا النساء تستقبلهم فإنهن قوم مساخرون فعسى أن يزدروا فيهلكوا قال : فعلوا فأخرجوا النساء تستقبلهم قال وكان للملك ابنة ذكر من عظمها ما ۖ أعلم بهو فقال : فقال أبوها أو بلعام لا تمكني نفسك إلا من موسى قال : ووقعوا في الزنا قال : فأتابها رأس سبط من أسباطبني إسرائيل فأرادها على نفسه فقالت : ما أنا بممكنة نفسي إلا من موسى : رجل منبني هارون ومعه الرمح فيطعنهم قال : وأيده ۖ بقوة فانتظمهما جميعاً ورفعهما على رمحه فرأهما الناس - أو كما حدث - قال : وسلط ۖ عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً قال أبو المعتمر : فحدثني سيار أن بلعاماً ركب حماره له حتى أتى العلوى أو قال طريقاً من العلوى جعل يضربيها ولا تتقدم وقامت عليه فقالت : علام تضربني ؟ أما ترى هذا الذي بين يديك ؟ فإذا الشيطان بين يديه قال : فنزل وسجد له قال ۖ تعالى : { واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصر القصص لعلهم يتذمرون } قال : فحدثني بهذا سيار ولا أدرى لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره (قلت) هو بلعام ويقال بلعم بن باعوراء ويقال ابن أبر ويقال ابن باعور بن شهتم بن قوشتم بن ماب بن لوط بن هاران ويقال ابن حران بن آزر وكان يسكن قرية من قرى البلقاء قال ابن عساكر : وهو الذي كان يعرف اسم ۖ الأعظم فانسلخ من دينه له ذكر في القرآن ثم أورد من قصته نحو ما

ذكرناه هنا أورده عن وهب وغيره و^أعلم وقال محمد بن إسحاق بن سيار : عن سالم أبي النصر أنه حدث أن موسى عليه السلام لما نزل في أرضبني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إليه فقالوا له : هذا موسى بن عمران فيبني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلهابني إسرائيل وإننا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل محاب الدعوة فاخذ ^أ عليهم قال ويلكمنبي ^أ معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعوه عليهم وأنا أعلم من ^أ ما أعلم ؟ قالوا له : ما لنا من منزل فلم يزالوا به يرقصونه ويتصرون إليه حتى فتنوه فافتتن فرك حماره له متوجها إلى الجبل الذي يطلع على عسكربني إسرائيل وهو جبل حسبان فلما سار عليها غير كثير ربيضت به فنزل عنها فضربها حتى إذا أزلقها قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربيضت به فضربها حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجة عليه فقالت : ويحك يا بلعم أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أما مامي تردني عن وجهي هذا ؟ تذهب إلىنبي ^أ والمؤمنين لتدعوا عليهم فلم ينزع عنها يضربها فخل ^أ سبيلها حين فعل بها ذلك فانطلقت به حتى إذا أشرفته به على رأس حسبان على عسكرموسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف ^أ لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلىبني إسرائيل فقال له قومه : أتدرى يا بلعم ما تصنع ؟ إنما تدعوا لهم وتدعوا علينا قال فهذا مالا أملك هذا شيء قد غلب ^أ عليه قال : واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم : قد ذهبت مني الان الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال حملوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكرية يبعنها فيه ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتهم لهم ففعلوا فلما دخلت النساء العسكرية مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كسي - ابنة صور رأس أمته - برجل من عظماءبني إسرائيل وهو زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام فلما رآها أعجبته فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال : إني أطئنك ستقول هذا حرام عليك ؟ قال : أجل هي حرام عليك لا تقربها قال فوا ^أ لا أطيعك في هذا فدخل بها قبته فوقع عليها وأرسل ^أ الطاعون فيبني إسرائيل وكان فنحاص بن العizar بن هارون صاحب أمر موسى وكان غالبا حين صنع زمري بن شلوم ما صنع فجاء والطاعون يجوس فيهم فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحييه وكان بكر العizar وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون فحسب من هلك منبني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتلها فنحاص فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفا والمقلل لهم يقول عشرون ألفا في ساعة من النهار فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والذراع واللحى والبكر من كل أموالهم وأنفسها لأنه كان بكر أبيه العizar

ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله { واتل عليهم نبأ الذي آتينا آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصر القصص لعلهم يتفكرون } قوله تعالى : { فمثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث } اختلف المفسرون في معناه فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم عن أبي النضر أن بلعاما اندلع لسانه على صدره فتشبيهه بالكلب في لهيته في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر وقيل معناه فصار مثلك في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه إلى الإيمان وعدم الدعاء كالكلب في لهيته في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث في الحالين فكذلك هذا لا ينفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه كما قال تعالى : { سواء عليهم أنذرتهم أم لم تذرهم لا يؤمنون } استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر لهم } ونحو ذلك وقيل معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب فعبر عن هذا بهذا نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره قوله تعالى : { فاقصر القصص لعلهم يتفكرون } يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم { فاقصر القصص لعلهم أي لعلبني إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له في إضلal الله إياه وإعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب في غير طاعة ربه بل دعا به على حزب الرحمن وشعب الإيمان أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان كليم الله موسى بن عمران عليه السلام ولهذا قال { لعلهم يتفكرون } أي فيحذروا أن يكونوا مثله فإن الله قد أعطاهم علما وميزهم على من عداهم من الأعراب وجعل بأيديهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم يعرفونها كما يعرفون أبناءهم فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته ومؤازرته كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلا في الدنيا موصولاً بذل الآخرة قوله { ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا } يقول تعالى ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا أي ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيها بالكلب وبئس المثل مثله ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [ليس لنا مثل السوء العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه] قوله { وأنفسهم كانوا يظلمون } أي ما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى وطاعة المولى إلى الركون إلى دار البلى والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى